إنسانية الإسلام في نظرته

إلى الأسرة والمرأة

«١»

التعاون العائلي في سبيل الآخرة والجنَّة

■ الأسرة المسلمة أسرة تقوم على التكافل المعنوي والمادي معاً.

فليس بالتكافل المادي في أمور الدنيا يتحقق التكافل الصحيح الذي تشير إليه الآية الكريمة ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ فهذا التعاون هو أسمى أنواع التكافل الباقي والخالد...

■ وما الفائدة في نهاية الأمر إذا نجحت الأسرة المسلمة في قيادة أبنائها إلى الأموال والمناصب الدنيوية، ثم دخلوا جهنم في الآخرة لفسقهم وترفهم وانحرافهم عن دين الله.

إنها الخسارة الحقيقية مهما كانت أرباح الدنيا الفانية الزائلة المحدودة...

■ وفي تاريخنا الإسلامي صفحات حافلة بصور البطولة الصادقة في كل ألوان التكافل العائلي، وصور التضحية والإيثار، وكذلك في ميادين الشجاعة؛ فمواقف الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة، وهو يدعو إلى الله صابراً محتسباً واثقاً بنصره أروع أمثلة للشجاعة، وكذلك مواقفه في المدينة، وهو يجابه قوى الشرك والنفاق، ولؤم اليهود.

هذه المواقف الكريمة تمثل القدوة الأسمى التي اقتدى بها المسلمون..!!

■ وقد سار خلفاؤه الراشدون رضوان الله عليهم على نهجه لا تصدهم عن الجهاد في سبيل الله عقبات، ولا تذهب بألبابهم الدنيا، بعد أن ملكوا كنوز الأرض، ورفعوا راية الإسلام في أكثر الربوع.

■ ومن صور الشجاعة الرائعة التي رواها تاريخنا، صورة التابعي الجليل (صلة بن أشيم العدوي) وأسرته (وهو من كبار التابعين من أهل البصرة ت سنة ٧٧هـ).

فقد قدَّم كل أعضاء الأسرة تضحيات كبيرة في سبيل الإسلام!!.

وإنها لأسرة مباركة بكل المقاييس..!!.

■ ففي إحدى معارك المسلمين مع الفرس تقدم (صلة العدوي) وصاحب له، يمهدان الطريق للمسلمين، وينْشران الرعب في جيش المشركين، ولما علم المشركون بأن كلّ ما أصابهم من خوف ورعب، إنما كان على يد اثنين من المسلمين ازداد هلعهم، حتى قال بعضهم لبعض: إذا كان رجلان من المسلمين صَنَعَا بنا هذا. فكيف لو قاتلونا كلهم؟! وانتهى رأيهم إلى الاستسلام للمسلمين، والنزول على شروطهم وكفى الله المؤمنين القتال. بفضل شجاعة (صلة) وصاحبه!! رضي الله عنهما.

■ وفي معركة أخرى خرج (صلة) وولده مُجاهَدين في سبيل الله، ولما بدأت المعركة قال (صلة) لولده: تقدَّم فقاتل حتى أحتسبك عند الله، فسارع الابن ملبّياً رغبة أبيه، حتى نال نعمة الشهادة على مرأى من والده الشجاع..!!.

■ ثم تقدم (صلة) بعد ابنه يقاتل، حتى استشهد بدوره، ولقي الله مطمئنا راضياً، وكأنه كان يريد الاطمئنان على استشهاد ابنه وفوزه بالجنَّة!!

■ ولم تكن زوجة (صلة) الزاهدة العابدة (معاذة بنت عبد الله العدوية) أقلَّ بطولة وشجاعة من زوجها وولدها. فعندما ذهبت النسوة لتعزيتها فيهما، رفضت العزاء وقالت لهن: «إن كنتن جئتن لتهنئتي فمرحباً بكن، وإن كنتن جئتن لتعزيتي فارجعن»!!.

■ وهكذا كانت الأسرة كلها (صلة، وولده، وزوجته) على هذا المستوى الرفيع من الإخلاص لدين الله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.. وقد يأخذنا العجب - كل العجب - من هذا الأب الذي يريد أن يطمئن على استشهاد ابنه قبل استشهاده، مع أن العكس هو السائد بين الناس الذين يريدون أن يخلفهم أبناؤهم في ثرواتهم وشؤون دنياهم، وقد يبيعون دينهم من أجل دنيا أبنائهم، ناسين الميزان الصحيح للحبِّ، فدخول ابنك الجنة، وبقاؤه فيها ملايين السنين هو الأهم والأجدى حتى بمقياس المصلحة البحتة، وبمقياس التجارة العملية.. فالنسبة بين التجارة مع الله (التجارة في سبيل الآخرة) أعظم -كما وكيفاً- بملايين المرات من أية تجارات أو أرباح يمكن أن يكتسبها أي إنسان في هذه الدنيا..

■ المهم أن نفكر بعقل وعلم.. لكنه العقل المؤمن الذي يحسب دون ضغوط الغرائز والأهواء، ولكنه العلم الصحيح الذي تمتد رؤيته عبر مساحة الوجود الحقيقية.. مساحة الدنيا والآخرة..

وليس مساحة الدنيا المحدودة التي لا تساوي نسبة مليونية بالنسبة للآخرة..!!

لأن الآخرة هي دار القرار، ولأنها خير وأبقى.. وهكذا فهم التابعي الجليل (صلة بن أشيم العدوي) المعادلة الحقيقية.. وهكذا فهمتها أسرته الصالحة.

.. وهكذا يجب أن يفهم المسلمون الصادقون.

«٢»

الوفاء بين الزوجين طريق السعادة في الدارين

■ هذه امرأة أخلصتْ لزوجها فأنقذته من النار بعد أن هداها الله إليه.. وهي صحابية جليلة وقفت انطلاقاً من حبِّها لزوجها -موقفاً قوياً في ساعة امتحان صعب، فاندفعت- بعد إسلامها مباشرة تحاول إنقاذ زوجها الذي كان.. كما كانت هي من ألدّ أعداء الإسلام.. فلما هداها الله وأسلمت يوم الفتح الأعظم أبت إلا أن يشاركها زوجها الإسلام كما شاركها الجاهلية، والعمل للإسلام كما شاركها العمل ضدّ الإسلام!!

■ هذه الصحابية الجليلة القدر هي: «أم حكيم بنت الحارث بن هشام» القرشية المخزومية التي تأخر إسلامها؛ إذْ آمنت ككثير من أهل بيتها يوم فتح مكة العظيم في السنة الثامنة للهجرة، وكان ممن أسلم مثلها في ذلك اليوم أمها «فاطمة بنت الوليد بن المغيرة» القرشية التي سبقها إلى الإسلام أخواها الوليد بن الوليد، وخالد بن الوليد، وكل منهما طيّب الذكر في تاريخ مسيرة الإسلام والتمسك به والدفاع عنه والجهاد في سبيله.

إنها (أسرة) كاملة أبطأت في قبول الإسلام، لكنها عندما هداها الله قدَّمت صفحات رائعة، فاستحقت أن توصف بهذا الوصف الكريم: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»..

■ لقد ارتفعت يوم فتح مكة راية الإسلام خفاقة، وجاء نصر الله لعسكره دون قتال يذكر، فكان بحق فتحاً مبيناً، وكان نقطة انتقال في مسيرة الدعوة الإسلامية، وفي تاريخ الإنسانية جمعاء.

■ ولم تَسَعْ فئة قليلة ممن ناهضوا الإسلام والمسلمين من قبل إلا أن تفرّ خارج مكة، بل وخارج حدود الجزيرة العربية شعوراً بالذنب وخوفاً مما قد تلقى جزاء ما اقترفته أيديهم وألسنتهم من إيذائهم صحابة رسول الله وبطشهم بهم بطش غادرين لم يرعوا حرمة، ولم يقدروا صهراً ولا قرابة، فكان عداؤهم للإسلام ولرسوله ولأتباعه شديداً تجاوز الحدود الإنسانية والأخلاقية!!.

■ وكان من هذا النفر الذي فرّ «عكرمة بن أبي جهل» زوج أم حكيم، التي كانت قد أسلمت مع من أسلم في يوم الفتح، وقذف الله في قلبها الإيمان وحبَّبه إليها، كما قذفه في قلب أمها فاطمة بنت الوليد، وساءها وأحزنها ألا يفوز زوجها بالإسلام ورضا الله والجنة، بعد أن استشعرت هي حلاوة الإيمان.. ونعمة التوحيد..

وقد عزّ على أم حكيم أن يكون مصير زوجها عكرمة بن أبي جهل هذا المصير السيئ، وهو الذي شاطرها الحياة حلوها ومرها، وعاشا معاً جنبا إلى جنب في مرها وحلوها.. قبل الإسلام.

■ ولهذا فعندما انتهى الرسول عليه السلام من البيعة وقفت أمامه وقالت له بصوت كله رجاء وأمل:

«يا رسول الله.. إن عكرمة زوجي قد هرب منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمِّنه يا رسول الله (أي أعطني الأمان له من القتل يا رسول لله)..

فقال لها النبي الكريم الرحيم عليه السلام: «هو آمن يا أم حكيم»...

فكأنه عليه السلام بهذا الأمان حرَّك فيها كل ما بينها وبين زوجها من حب ووفاء.. فانطلقت مسرعة تحاول اللحاق بزوجها قبل أن يفوت الوقت ويترك جزيرة العرب..

وقد أدركت (أم حكيم) زوجها عكرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة حيث ركب البحر، وأوشكت السفينة على الإقلاع، فنادته بأعلى صوت في شبه توسل قائلة له:

«يا ابن عم... جئتك من عند أوصل الناس وأبرّ الناس وخير الناس..!!.

«يا ابن عم: لا تُهلك نفسك».. (هلاكاً دينوياً وأخروياً معاً...).

«يا ابن عم:... إني قد استأمنتُ لك محمداً.. ولقد كلَّمته فأمنَكَ»... وكأنَّ كلماتها وقعت برداً وسلاماً على عكرمة، وكأنه كان ينتظرها.. ولهذا فعندما أدرك عكرمة أن ما قالته أم حكيم إنما هو عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وهو يعرف كما يعرف الجميع أن محمداً إنْ قال وفَّى، وأنه يوفِّي بالعهد، وإن إخلاف الوعد.. في دينه شعبةٌ من شعب النفاق.. عندما أدرك عكرمة حقيقة الصدق في كلام زوجته أم حكيم سرعان ما عاد إليها ومعها قافلين معاً إلى مكة المكرمة ليقابلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليعلن عكرمة بين يديه إسلامه، وليصبح بعد ذلك -عكرمة بن أبي جهل- من جنود الإسلام وقادة معاركه الجهادية، وكأنه ضمن إطار الأسرة التي ينتمي إليها بالمصاهرة كان يريد محو آثار الماضي، مع علمهم بأن الإسلام يجبّ ما قبله، إلا أن طبيعتهم تأبى إلا أن يكونوا أقوياء في ظل الإسلام أكثر مما كانوا في ظل الجاهلية..

وثمة درس آخر قدمته الزوجة الوفية (أم حكيم).. فليس حب الزوجة لزوجها شأناً من شؤون الدنيا فحسب، بل هو شأن من شؤون الآخرة بالدرجة الأولى.. وصدق الله العظيم الذي وجَّه إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى:﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾.. فالحبّ الباقي والخالد.. هو الحب في سبيل الله.. دنيا وآخرة..

وهكذا كانت الزوجة الوفية والصحابية الجليلة أم حكيم بنت الحارث.. رضي الله عنها..!!.

«٣»

حين يكون البيت كريماً يكون الأبناء صالحين

للبيت أثره الحاسم في تكوين الإنسان الصالح.. ويعدّ المناخ العام مثل البيئة، فهو يؤثر في الإنسان من كل جوانبه، بطريقة شعورية وغير شعورية، وطريقة مباشرة، وغير مباشرة.. ومن هنا حرص الإسلام على اختيار الزوجة من بيت صالح؛ لأن العرق دساس، وحذَّر من المرأة الحسناء الجميلة التي نبتت في منبت السوء، حتى ولو كان ظاهرها عادياً.. كما أمرنا باختيار بطانة الخير، وحذَّرنا من بطانة السوء؛ لأنها كنافخ الكير (الحديد) الذي لا يصيبنا من نفخه إلا بقايا الشظايا النارية والروائح الكريهة الفاسدة..

■ وقد شاءت إرادة الله أن تسوق الخير لبيت أم سلمة، لأن زوجها (أبا سلمة) كان صالحاً، ولأن (أم سلمة) قد جاهدت معه وتحملت الكثير في سبيل الهجرة، ثم تَحَمَّلت بصبر مأساة وفاة زوجها الصالح أبي سلمة.. وإكراماً من الله لها ألْهم نَبِيَّه الكريم محمداً صلى الله عليه وسلم أن يطلب الزواج منها مع علمه عليه السلام بأن أبا سلمة ترك لها عديداً من الصبية يحتاجون إلى الرعاية المادية والمعنوية.. بل لعلَّه لوجود هؤلاء الصبية ألهم الله نبيه أن يتقدم للزواج من أم سلمة. فلما علمت برغبة الرسول في الزواج منها كان أول ما ذكرته هم هؤلاء الصبية الذين في كنفها، والذين

لابدَّ أن ترعاهم.. ولما علمت بأن الرسول عليه السلام يحرص على مشاركتها الأجر والثواب في رعايتهم وتربيتهم وكفالتهم فرحت بالأمر كل الفرح ووافقت على الزواج برسول الله عليه السلام.

ومن هؤلاء الصّبية صاحبتنا التي نخصها بهذا الحديث..

■ كانت (زينب) بنت أبي سلمة وأم سلمة (أم المؤمنين) قد ولدت بالحبشة يوم هاجر إليها أبواها (أبو سلمة وأم سلمة)، وقال آخرون: ربما كانت طفلة يوم هاجر أبوها وأمها، وإنهما دخلا الحبشة وهي في رفقتهما.. ولا يمكن ترجيح أحد الرأيين، (كما يقول أستاذنا الدكتور حسن حبشي..).

■ لكن دلالة هذا في الحالين أنها كانت صبية صغيرة يوم عرفت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزادت هذه المعرفة الشريفة حين قضت (زينب) فترة من حياتها في كنفه (عليه السلام) وفي بيته؛ حيث رعى رسول الله أم سلمة وأولادها بعد وفاة أبي سلمة وزواجه عليه السلام منها، ثم تزوجت زينب من «عبد الله بن زمعة بن الأسود الأسدي» وكان من أشراف قريش.. وكان زواجها -بطبيعة الأمور- برعاية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكل من رعاه الرسول مادياً رعاه كذلك معنوياً وإنسانياً.

■ وقد حفظت زينب عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة، وروت عنه وعن أزواجه ومنهن أمها (أم سلمة) وعائشة وأم حبيبة وغيرهن رضوان الله عليهن جميعاً، فقد كان الرسول عليه السلام نوراً ومعلماً لكل من حوله، ولكل من يحيطون به، فكل أقواله وأعماله تشريع وتربية وهداية ورحمة للعالمين.

وكانت زينب بنت أبي سلمة معدودة في هذا الرعيل من الفقهاء الذين يرجع إليهم وإليهن في الفقه.

لقد أفادها قربها العائلي والمكاني من رسول الله صلى الله عليه وسلم فتخرجت من مدرسته الشريفة.. وأصبحت موجهة ومفتية ومعلمة..

قال أحدهم: «كنا إذا ذكرنا امرأة فقيهة في المدينة ذكرنا زينب بنت أبي سلمة» رضي الله عنها..

■ وقد شَاركَتْ -وهي امرأة- في حلٍّ كثير من المشكلات الاجتماعية والعائلية، وكانت ملجأ كثير من أصحاب المشكلات.. ومما يروى في ذلك أنه حدث أن غضب الصائغ، وهو أبو رافع نفيع على امرأته، واشتدَّ الغضب بينهما فلم يجد إلا اللجوء إلى صاحبتنا الصحابية زينب بنت أبي سلمة، فوجد عندها الجواب الصحيح، وإنه ليقول في شأنها: «ذهبنا إلى زينب وهي يومئذ أفقه امرأة بالمدينة».. وهذا يدلُّ على الدور الريادي والاجتماعي للمرأة المسلمة في صدر الإسلام، وما زالت المرأ المسلمة مَدْعوّةً للقيام بهذا الدور.

■ وقد قامت (زينب بنْت أبي سلمة وأم سلمة) بتربية أولادها تربية نبوية كريمة مستقاة من مناخ النبوة التقيّ.. وقد جاهد ولداها لها جهاداً عظيماً، وقدَّما كبيراً في خدمة الدعوة الإسلامية، وقد جرى عليهما قضاء الله فاستشهدا راضيين، وحُمل الاثنان إلى أمهما، ووضعا بين يديها مقتولين، فاستعانت بالصبر وقالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

ولم تكن هذه اللحمة الدالة على قوة الإيمان وقوة الصبر والثقة في الله والدار الآخرة.. لم تكن شيئاً غريباً بالنسبة لصحابية جليلة مثل (زينب بنت أم سلمة - أم المؤمنين) فهي أمر مستقيم كل الاستقامة مع البيت الذي نشأت فيه، والأبوين الصالحين اللذين تنتمي إليهما، والتربية التي عاشت في رحابها على يد رسول الله وإمام المتقين محمد عليه الصلاة السلام.. الذي رعاها صبَّية، وظل معلماً لها وراعياً على مستوى عمرها كله.. إكراماً لأم سلمة.. أم المؤمنين وزوجة الرسول رضي الله عنها..

ورضي الله عن زينب بنت أبي سلمة وأم سلمة!!.

«٤»

إنسانية المرأة وإيجابيتها في حضارتنا الإسلامية

■ اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بتعليم المرأة وإتاحة فرص العمل لها بعد أن كانت محرومة من أبسط حقوقها الإنسانية. وحسبها أنها كانت توأد مخافة العار.

■ وكان من نتائج هذه التربية الإسلامية للمرأة أن حرصت المرأة المسلمة على منافسة الرجل في طلب العلم، وفي مزاولة الأعمال الجديرة بها.

■ وقد طلب النساء من النبي صلى الله عليه وسلم أن يلقي عليهن دروساً خاصة، وأن يفرد لهن يوماً لأن الرجال قد غلبوا عليهن في ذلك (!!) فاستجاب النبي لهن صلى الله عليه وسلم (كما أورد البخاري).

■ ومما لا شك فيه أن الاهتمام النبوي بتعليم المرأة كان له أثره الكبير، فتخرج من مدرسة النبوة عالمات داعيات كنّ ملأن سمع الدنيا وبصرها، فهذه هي السيدة عائشة رضي الله عنها يصفها الإمام علي بقوله: «لو كانت امرأة خليفة لكانت عائشة».

وهذه هي الشفاء بنت عبد الله انتدبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعليم زوجته حفصة بنت عمر رضي الله عنهما الكتابة.

■ وقد أورد القلقشندي «أن جماعة من النساء كن يكتبن».

■ ومن العلوم التي برع فيها النساء في صدر النبوة: حفظ القرآن، وكان من أشهر الصحابيات الحافظات أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصارية.

وكانت أم ورقة من الحافظات المتميزات، ولذلك أرادت أن تَشيع قراءة القرآن، وأن تعلم بنات جنسها، فطلبت من رسول الله أن تقيم مسجداً وتَؤم في بيتها، فأذن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، واختار لها مؤذنا شيخاً كبيراً، وكانت قراءتها تُسمع خارج البيت من قبل المارين بقرب دارها.

ومن المشهورات بحفظ القرآن وتلاوته: أم يعقوب التي كانت عارفة بالتلاوة وأحكامها، وبعلم الفقه.

■ ومن أهم المهن التي برعت فيها المرأة في المجتمع الإسلامي الحرف التالية:

١ الغَزْل: (الحياكة) وهو تجهيز المادة الأولية من خيوط الصوف أو الشعر لتستعمل في إنتاج الملابس، أو الأردية والأغطية، أو الحبال لاستعمالها في الإسعافات الأولية وغيرها وقت الغزوات.

٢ حياكة الحصر: من خوص النخيل وغيره، لاستعماها في فرش البيوت أو المساجد أو غيرها.

٣ دبغ الجلود وتصنيعها: وقد برع في هذا التخصص زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رأسهن السيدة زينب بنت جحش حيث كانت صناع اليدين فكانت تدبغ وتتصدق بعد

تصنيع الجلود وبيعها، وكذلك السيدة سودة بنت زمعة رضي الله عنها، كانت بارعة في دباغة الجلود الطائفية وهي الجلود القادمة من مدينة الطائف.

■ ومن المتخصصات البارعات في الدباغة الصحابية الجليلة أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنها.

■ وهكذا قدمت حضارتنا صوراً من تفعيل دور المرأة الاجتماعي والاقتصادي لم تعرفه حضارات من قبل الإسلام.. وقد تتبع هذه الصور كثيرون من بينهم الدكتور ليث جاسم في كتابه عن المؤسسات الاجتماعية في الحضارة الإسلامية.. فجزاهم الله خيراً.

■ وهذا في وقت كان يسمى (العصور الوسطى) أي عصور الظلام في أوروبا.. ومن الإسلام أخذت أوروبا تفعيل دور المرأة، إلا أنها حادت بهذا التفعيل عن طريقه الصحيح، بينما حافظ الإسلام على إنسانية المرأة وكرامتها.. ودورها الحضاري.. في سياق واحد.

«٥»

المرأة الثابتة على الإيمان تقود قبيلتها للإسلام

■ للمرأة -مثل الرجل- نصيبها في الدعوة إلى الله وفي التربية الإسلامية، فقد جعلها الله صنْواً للرجل سواء بسواء في العقائد والعبادات، ولم يفرق بينها وبين الرجل في بعض الشرائع والمعاملات إلا مراعاة لفطرتها، ولكي تتكامل مع الرجل، ولا تتوازى معه فيقع التصادم والتنافر، فهما -في النهاية- من نفس واحدة، ويجب أن يظلاَّ روحاً واحدة في جسدين بلا تشاحن ولا انفصال.. ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ (سورة آل عمران).. وهذا يقتضي الحقوق المتكاملة لا المتوازية.. وكذلك في الواجبات!!.

■ وقد أكرم الإسلام المرأة وصانها عن الابتذال، وفتح لها آفاقاً كثيرة للتعليم والعمل والدعوة ومشاركة الرجل في بناء الحياة في داخل البيت وخارجه، في إطار تنظيم أخلاقي بديع، يحفظ الأخلاق والإطار الإنساني والغايات الكريمة للحياة..

■ وعندما ندرس السيرة النبوية الكريمة نجد المرأة المسلمة (أمَّا زوجة) مشاركة في المسجد النبوي وفي العمل الاجتماعي والجهادي من خلال مساحة واسعة تمتّد إلى كل المواقع التي تسمح فطرة المرأة بالعمل فيها.. وقد رأينا الصحابيات الجليلات يأخذن عن رسول الله الحديث،

ويروينه، ويتعلمن من رسول الله، ويدعون إلى الله، بالعلم الذي تعلَّمنه، ويتلقين القرآن، ويحفظنه ويعلمنه للآخرين، ويشعرن بأنهن مسؤولات عن الإسلام مثل الرجال.. سواء بسواء.

■ أم شريك غزيّة بنت جابر العامرية نموذج نقدمه دلالةً على صدق ما نقول.. وما يقوله الإسلام والتاريخ أيضاً..

لقد أسلمت أم شريك «غزية بنت جابر بن حكيم العامرية»، ثم لم تقف عند إسلامها، فجعلت تدعو النساء إلى الإسلام، وترغبهن فيه وتحببه إليهن، وتخرج من بيت إلى بيت، وتنتقل من امرأة إلى امرأة، حتى انتشر أمرها وجاءها أهل زوجها مكشِّرين عن أنيابهم غاضبين من إسلامها ومن دعوتها إلى الإسلام، وكانوا يرمونها بكل سوء ويريدون أن ينالوا منها ومن دينها، وكرهت عشيرة (أبي العكر) أن تكون زوجته (أم شريك داعية للإسلام على هذا النحو) وتقول هي في ذلك بأسلوبها:

-لقد جاء قوم زوجي فارتحلوا بنا من دارنا ونحن كنا بذي الخلصة، وكان هو من صنعاء.. فساروا يريدون منزلاً، وحملوني على جمل عجوز هو شرّ ركابهم وأغلظه.. وراحوا يطعمونني الخبز بالخّل، وحرَّموا عليَّ الماء فلم يسقوني قطرة منه. (مما أجهدها كل الإجهاد، فالصبر على الطعام أو رداءته أهون من الصبر عن الماء!!) وتقول أمّ شريك:

■ ثم كان يوم قد انتصف نهاره وسخنت شمسه ونحن قانطون، فنزلوا ثم ضربوا خيمتهم، وتركوني في الشمس حتى ذهب عقلي وسمعي وبصري. (نتيجة عدم شربها الماء لمنع المشركين الماء عن أم شريك).. ثم تتابع قائلة:

فوالله إني على ذلك، وقد بلغ منّي الجهد غايته إذ وجدت دلواً على صدري، فأخذته فشربتُ منه نفساً واحداً، ثم انتُزع منّي الدلو، فذهبتُ أنظر فإذا هو معلق بين السماء والأرض فلم أقدر عليه.. ثم تدلّى إليّ ثانية فشربت حتى رويت، وأهرقت على رأسي ووجهي وثيابي».. وهي رعاية من الله سيقت لأم شريك حتى لا تموت عطشاً، وعندما سألوها عن مصدر الماء الذي على ثوبها قالت:

إنه «من عند الله وقد رزقنيه الله»... ولكنهم بتفكيرهم الوثني والمادي لم يصدِّقوا هذا، وأخذوا يتفرَّسون فيها فوجدوا كل نضارتها قد عادت إليها، ووجدوا آثار البلل على ثيابها.. فذهبوا يبحثون يمنياً ويساراً ومن ثم انطلقوا إلى قِرَبهمْ وأدواتهم فوجدوها لم تحلّ.. فهي هي كما تركوها..

ومضوا ينظر بعضهم إلى بعض ويقولون: إن القِرب كما هي، والماء الذي فيها لم يمس. ومقداره هو مقداره الذي يعرفونه ويذكرونه جيداً...

وأن هذه القِرب لفي مكان أمين.. والمرأة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، ولا تستطيع حراكاً، وعند ذلك أيقنوا صِدقها فجاؤوها قائلين:

«نشهد أن ربك هو ربّنا... وأن الذي رزقك في هذا الموضع - بعد أن فعلنا بك ما فعلنا هو الذي شرع الإسلام».

وهو ربٌّ قادر على كل شيء.. أما أصنامنا فلا تملك الحركة أو النفع..

■ وحينذاك أسلموا عن بكرة أبيهم، وكسروا أصنامهم بأيديهم، وهاجروا جميعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاهرون بإسلامهم، ويشهدون أن محمداً عبد الله ورسوله، وعرفوا فضل أم شريك عليهم...

أفليست بثباتها وعمق إيمانها هي التي أرتْهم بفضل رحمة الله مظهراً من مظاهر قدرة الله ورحمته اللتين لا تحدهما الأسباب، ولا يوصد أمامهما أيّ باب..

ورضي الله عن الصحابية الجليلة الثابتة على الحق (أم شريك العامرية).

«٦»

أهل صفَّة من النساء

إن تاريخ المرأة في حضارتنا تاريخ مظلوم مع أن المرأة كانت فاعلة وإيجابية ومتفوقة على كثير من الرجال ولها إسهاماتها في طلب العلم وفي الدعوة إلى الله وفي الجهاد في سبيل الله!!.

وقد ذكرت كتب السيرة أن هناك (أهل صفة) من الرجال، وفي المقابل لم ترد إلا إشارات عابرة تفيد أن هناك (أهل صفة) من النساء.

والحقّ أنه كانت هناك (صفَّة للنساء): وهي عبارة عن سقيفة خاصة بالنساء في المسجد النبوي -أو لعلها في تلك الصفوف الخلفية المخصصة للنساء - وكانت تجتمع فيها مجموعة من النساء قد تخاللن وتآخَينَ وتعاهدن فيما بينهن على القيام ببعض أعمال البر المفيدة النافعة ومنها: الأنشطة التعليمية حيث طلبن من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخصص لهن يوماً لتعليمهن دينهن بعد أن غلبهن الرجال على ذلك، فاستجاب لهن صلى الله عليه وسلم، وجعل لهن يوماً على حدة (رواه البخاري).

وإضافة إلى هذا التعليم الجماعي فقد كان هناك تعليم فردي ندب إليه رسول الله بعض النساء ومن ذلك: حثه على تعليم المسلمين بعضهم بعضا كما طلب رسول الله من الشفاء بنت عبد الله تعليم حفصة رضي الله عنها!!.

بل إن النساء كن من مؤسسات الدولة الإسلامية لدرجة أن بيعة العقبة الثانية ضمت عدداً من النساء بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أن كل النساء اللائي كن يسلمن يقمن بالبيعة أيضاً.

وكذلك كان للنساء مندوبة تتحدث باسمهن يدل على ذلك قول أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إني رسول ورائي جماعة نساء المسلمين كلهن يقلن بقولي، وعلى مثل رأيي.

وقد استمرت هذه (الجمعية النسائية الخيرية) مدة تشغل مكانا خاصاً بها في المسجد حتى طلب عمر رضي الله عنه خروجهن من المسجد. تقول أم حبيبة (خولة بنت قيس): كنا نكون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه، وصدراً من خلافة عمر رضي الله عنه في المسجد نسوة قد تخاللن، وربما غزلت بعضناً بعضاً فيه الخوص.. فأخرجنا منها عمر..

وهذه اللقطات تؤكد لنا مدى الفاعلية والإيجابية للمرأة المسلمة بناء حضارة الإسلام ودولته، وذلك في وقت كانت أوربا وأكثر بلاد العالم تنظر إلى المرأة على أنها نصف شيطان وأنها شر لا بد منها وأن مكانها البيت أو الوأد خشية العار.